6 العرب

لم يلعب العرب حتى القرن السابع الميلادي دورا مهما في منطقة الشرق الأدنى بينما دخلوا الساحة التاريخية بزخم بعد ظهور النبي محمدﷺ. فقد اعتنقت القبائل العربية، التي كانت غالبا في حالة انقسام ونزاع، الدين الجديد (الإسلام) الذي منح العرب حيوية ضخمة. فبعد وفاة النبي محمدﷺ بدأوا فتوحاتهم السريعة والناجحة خارج الجزيرة العربية، حتى أنهم خلال عدة عقود فقط قضوا على الإمبراطورية الفارسية القوية وفتحوا سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا بكاملها. وفي سنة 711 م فتح العرب إسبانيا، ووصلت حدودهم في الشرق إلى سهول آسيا الوسطى والهند، مما أسفر عن صلات ثقافية مثمرة بين حملة الإسلام والصين والهند.

ونظر الآن فتحوا بلدانا تعددت فيها الثقافات وتمايزت فقد امتزجت الثقافة العربية مع بقايا الثقافات القديسة في المناطق التي فتحوها. مما أدى إلى تقبلهم السريع لهذه الثقافات ولإبداعهم ثقافة عربية جديدة. وفي الواقع أن استمرار ذوبان التراث الثقافي، الذي نراه في بلدان مختلفة، كان يمكن أن يحدث فقط بفضل السياسة المتسامحة

للحكام العرب إزاء رعيتهم في المناطق المفتوحة. وهكذا فقد تحول الحكام الجدد إلى مدافعين ومشجعين للعلوم والفنون في المناطق المفتوحة، كما أثمر هذا الاتصال الإيجابي بين الثقافات القديمة والثقافة الحديثة عن نتائج خصبة بشكل خاص في بلاد الفرس. ففي بلاط الأسرة الحاكمة الأخيرة، الأسرة الساسانية، ازدهر الأدب والفن والعلم على مستوى رفيع جدا، وكان هناك أيضا مكتبات منظمة يتم فيها نسخ وترجمة المخطوطات القديمة. وهكذا في الوقت الذي كان فيه التراث اليوناني-الروماني يواجه أياما صعبة في أوربا الغربية، وحتى في بيزنطة في وقت من الأوقات، فإن بلاد الفرس كانت هي المكان الذي يجد فيه الشعراء والعلماء الملجأ الأمين والظروف المناسبة للنشاط.

فقد لجأ إلى هذه البلاد مثلا فلاسفة الأفلاطونية الجديدة، الذين اضطروا إلى مغادرة أثينا بعد أن أمر الإمبراطور يوسيتينان بإغلاق الأكاديمية سنة 529 م. وقد حدث هذا أيضا لأساتذة المدرسة المعروفة في أديسة بآسيا الصغرى، التي أغلقها الإمبراطور زينون.

فقد هاجر هؤلاء سنة 489 م إلى مدينة نصيبين القديمة وأسسوا هناك أكاديميتهم من جديد.

وهكذا فقد وجد العرب بعد أن فتحوا بلاد الفرس سنة 637 م الكثير من الكتب والكثير من العلماء والشعراء والمتأثرين بالثقافة القديمة، ووجدوا هناك ما هو أهم أيضا-الأشكال الجاهزة للعمل العلمي والثقافي المنظم (المكتبات، مراكز الوثائق الأكاديميات) مما سهل عليهم تقبل إنجازات الثقافة الفارسية في ذلك الحين، التي كانت قد تأخرت في جوانب كثيرة، ومن ثم تطويرها أيضا.

وفيما يتعلق بشريحة العلماء من السكان الأصليين، الذين اعتنقوا الإسلام بدورهم فلم يكن هناك ما يعيق استمرار نشاطهم وأسلوب حياتهم. وهكذا يمكن القول إن العرب سواء في بلاد الفرس أو في البلاد الأخرى، قد نجحوا في مد جسر قوي بين ثقافة العصر القديم وثقافة العصر الوسيط، وحتى ثقافة العصر الحديث، وذلك بفضل سياستهم الحكيمة إزاء الرعية وبفضل اندماج المثقفين والمؤسسات الثقافية في مسار الثقافة الجديدة التي أبدعها العرب.

أ- الكتابة العربية

إن حب العرب للكلمة المكتوبة، الذي عبروا عنه بسرعة في البلدان المفتوحة، لا يمكن أن يقارن إلا بحبهم للخط نفسه-للخط العربي-فالخط بالنسبة للعرب ليس مجرد نظام عملي للحروف التي تعبر عن الأفكار، بل هو أكثر من ذلك بكثير. إن الخط العربي نفسه، وهو الذي كتب به الكتاب المقدس للمسلمين (القرآن) وغيره من الكتب، مقدس في حد ذاته وله مغزى ديني ورمزي عميق. إن الخط العربي يستخدم في آن واحد للرسم والتزيين والتعبير عن الأفكار. وهكذا فالخط العربي يتداخل مع المشاعر الإسلامية ومع الفن الإسلامي إلى حد أنه أصبح جزءا لا يتجزأ من الهوية الدينية والقومية، وذلك بغض النظر عن المكان والزمان الذي يكتب فيه. إن نسخ القرآن هو في حد ذاته عمل ديني وسحري، ولذلك فإن هذا الكتاب المقدس ينسخه كل من يطلب التقرب إلى الله أو ينتظر الرحمة من الله، أو كل من يتمنى أن يرضي الله بعمله هذا. وفي العالم الإسلامي يأخذ شكل وجمال الحروف العربية معنى رمزيا وسحريا. وهكذا فإن التفنن في كتابة الحروف أو ابتداع تشكيلات جمالية من الحروف، ما هو إلا عمل مقدس. ولذلك لا نستغرب أن العرب، والمسلمين بشكل عام، قاموا بذلك النشاط العظيم في نسخ المؤلفات، الشيء الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ الكتاب المخطوط.

لقد تطور الخط العربي عن الخط النبطي، الذي كان يستعمل منذ بداية القرن الأول الميلادي في شرق الأردن. وقد كان هذا الخط يستعمل قبل ظهور الإسلام للأغراض الإدارية إلا أنه أخذ سمة مقدسة عندما شرع العرب يدونون كتابهم المقدس.

ب- مادة الكتابة-إنتاج الورق

كان العرب حتى القرن الثامن الميلادي مثلهم مثل بقية الشعوب في ذلك الوقت، غالبا ما يستعملون الرق للكتابة ثم أخذوا يستعملون ورق البردي بعد فتح مصر. ولكن القفزة التي حدثت لاحقا في إنتاج الكتاب لم تكن ممكنة لولا ظهور مادة جديدة ورخيصة للكتابة وهي الورق.

وحول هذا يسجل المؤرخون العرب حادثة، لها ما يؤكدها في المصادر

الصينية، تتعلق ببداية إنتاج الورق في العالم العربي. وكما يروي هؤلاء المؤرخون فقد اندلع في صيف سنة 751 م نزاع بين قبيلتين تركيتين في آسيا الوسطى وطلبت حينئذ كل قبيلة المساعدة من جيرانها، الأولى من العرب والثانية من الصينيين. وقد انتهت حينئذ المعركة بين هاتين القبيلتين بفوز القبيلة التي يدعمها العرب، مما أدى إلى أسر العرب لبعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر إنتاج الورق. وقد اقتاد العرب هؤلاء الأسرى إلى مدينة سمرقند، حيث أسسوا بمساعدتهم أول معمل لصنع الورق، وخلال فترة قصيرة أصبحت هذه المدينة معروفة بورقها الممتاز الذي كانت تنتجه وتصدره إلى كثير من البلاد العربية. وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، وبمساعدة الصينيين بدأ إنتاج الورق في بغداد نفسها بينما اشتهرت دمشق بسرعة كمركز معروف لإنتاج الورق.

ففي دمشق بقي ينتج لوقت طويل أفضل نوع من الورق، وبقي هذا يصدر إلى عدة بلدان أوربية حيث كان يشتهر باسم مصدره (الورق الدمشقي).

وفيما بعد أخذت معامل الورق تظهر في مصر، حيث سيقضي الورق بالتدريج على استعمال البردي. وعبر المغرب وصل إنتاج الورق أخيرا إلى أوربا، وبالتحديد إلى إسبانيا. وفي الواقع فإن أول إشارة حول هذا نجدها لدى الإدريسي، الذي يذكر سنة 1150 م مدينة شاطبة (ياتيقا اليوم) في قالانسيا حيث الورق «الذي لا يوجد له مثيل في العالم المتمدن» والذي يصدر لـ «الشرق والغرب».

ولكن في العالم الإسلامي لم يلغ الورق فورا استعمال الرق كمادة للكتابة، إذ بقي يستعمل لفترة أخرى لكتابة القرآن كما بقي ورق البردي يستعمل لفترة أخرى أيضا. ففي بغداد نفسها، وهي أكبر مركز لإنتاج الكتاب في العالم العربي حينئذ، لم يظهر أول كتاب على الورق إلا سنة 870 م. وفي الواقع فقد استمرت المنافسة بين ورق البردي والورق الجديد حتى القرنين 12-13 م، حين أنهى الورق الجديد تماما استعمال ورق البردي للكتابة.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر أخيرا الورق خارج العالم العربي- في أوربا. ففي ذلك الوقت تقريبا انتهى احتكار العرب لإنتاج الورق والاتجار به، بعد أن بقي في أيديهم حوالي 500 سنة.

جـ- إنتاج الكتاب وانتشاره

حتى القرن الثامن الميلادي، أي إلى أن بدأ العرب بإنتاج الورق، كانت معظم الأبيات الشعرية والروايات وحتى «الإنجازات» العلمية تنتقل من فرد إلى آخر بالمشافهة.

ولكن لدينا في القرآن ذاته معطيات كافية تشير إلى أن العرب كانوا يستخدمون الرق قبل ظهور الإسلام وغيره من مواد الكتابة لتدوين النصوص التجارية والإدارية إلخ.

ومع إنتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامي فقد ازداد عدد المخطوطات كثيرا وأخذ التنافس يشمل الخلفاء والوزراء والأغنياء على اقتناء الكتب الغالية والنادرة وأصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير بينما كان الكبار منهم يغمرون بالتواصي والهدايا القيمة. وكان الكثير من الخطاطين يعملون في المكتبات، حيث ينسخون هناك المؤلفات لحساب تلك المكتبات، بينما كان كبار الخطاطين يعيشون في قصور الخلفاء حيث ينسخون المؤلفات الغالية للمكتبات الخاصة. وإلى جانب هؤلاء كان هناك خطاطون يعيشون فقط من عملهم، أي يعملون حسب الطلب. وبين هؤلاء الخطاطين تمتع أولئك الذين كانوا ينسخون القرآن بشهرة خاصة كابن مكلا (886-940م) وابن البواب (توفي 1022 م و 1032 م)، الذي يقال إنه كتب بخط يده خلال حياته 500 نسخة من القرآن.

في كل المدن الإسلامية كانت التجارة بالكتب نشيطة للغاية. وكان الوراقون عادة يفتحون دكاكينهم أمام الجوامع والمدارس، وكانت هذه الدكاكين كثيرا ما تتمركز في شوارع خاصة حيث تكون حركة المارة على أشدها. إلا أن هذه الدكاكين لم تكن فقط لبيع الكتب. فهناك كان يجتمع المثقفون وأولئك الذين يريدون أن يصبحوا مثقفين وهناك كانت تناقش الموضوعات المختلفة وتنشد الأشعار وهكذا. وعلى الرغم من هذا فقد كان الدور المهم لهذه الدكاكين، بالإضافة إلى بيع الكتب، يكمن في نشر المعلومات حول المؤلفات الجديدة.

وفي العصر العباسي كانت بغداد المركز الأساسي لإنتاج الكتاب والاتجار به. ففي مرحلة الازدهار الكبير لإنتاج الكتاب في هذه المدينة وصل عدد دكاكين الوراقين إلى مائة. ومن بغداد كانت الكتب سرعان ما تجد طريقها

إلى أبعد المدن في العالم الإسلامي. وعلى ظهور الجمال كانت القوافل تحمل الكتب من بغداد إلى أقصى البلدان، كما كانت أيضا تحمل الكتب من هذه البلدان (بيزنطة، سوريا، الهند) إلى بغداد.

وقد كانت الكتب التي ينسخها الخطاطون المعروفون، أو التي يكتبها المؤلفون أنفسهم غالية جدا ولم يكن في استطاعة أحد أن يقتنيها سوى الأغنياء. وعلى سبيل المثال يكفي أن نذكر أن ثمن كتاب المؤرخ الطبري (839-923 م)، كما يذكر المقريزي، كان يصل إلى مائة دينار.

وكان هذا بالنسبة لذلك الوقت ثمنا مرتفعا إذ أن الكتاب المتوسط كان يباع بدينار أو دينارين. وحتى هذا يبدو ثمنا مرتفعا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأجرة السنوية لمقهى كانت لا تتعدى الدينار. أما أولئك الذين لم يكونوا يملكون هذه الإمكانية فقد كانوا ينسخون المؤلفات بأنفسهم أو يعطونها إلى خطاطين مغمورين لكي ينسخوها.

د- الكتب والمكتبات

بالمقارنة مع الكثير من المراكز الثقافية للعالم الإسلامي فإن بغداد تتميز بأنها ليست مدينة قديمة بل هي مدينة جديدة بنيت في القرن الثامن الميلادي. وقد بناها العرب بأنفسهم في مركز دولتهم الواسعة، وبالتحديد على ضفة دجلة حيث تتقاطع الطرق التجارية التي كانت تربط المحيط الهندي بالبحر الأبيض المتوسط. ونظرا للسياسة الحكيمة للأسرة العباسية، والموقع الجغرافي الملائم، فإن بغداد سرعان ما تحولت إلى أهم مركز سياسي وثقافي للعالم الإسلامي وأكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان (حوالي مليون ونصف نسمة). ففي هذه المدينة، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وحتى سقوطها بأيدي المنغوليين سنة 1258 م، تطور إنتاج الكتاب بشكل لا مثيل له في ذلك الوقت.

كان الخلفاء أنفسهم يتحمسون للكتاب ويهتمون به، إذ أنهم كانوا يشجعون العلماء على ممارسة العلوم ويحضون الكتاب على كتابة مؤلفاتهم. وكان هؤلاء أيضا يشجعون كثيرا على جمع وترجمة ودراسة مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء. وهكذا فقد شاركت أعداد كبيرة من الناسخين والمترجمين والمجلدين والمزخرفين والمثقفين في إنتاج الكتاب، وفي ترجمة وتفسير

النصوص المختلفة. وقد كان من الأهمية بمكان ما قام به هؤلاء من محاولات لجمع مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء، حيث وصل إلينا عدد كبير من هذه المؤلفات بفضل الترجمات السورية وبفضل الترجمات الأخرى التي جرت في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط. إلا أن بغداد لم تكن تجمع فقط مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء بل كان يصل إليها أيضا مؤلفات الكتاب من البلدان المجاورة كالهند وغيرها. وقد كان من الطبيعي في هذه الظروف أن تبرز بسرعة المكتبات الأولى الخاصة أولا ثم مكتبات القصور والخلفاء وبيوت الوزراء والعلماء الذين كانوا يقلدون بدورهم الخلفاء وبالإضافة إلى هذه فقد أخذت تكثر المكتبات الأخرى في الجوامع والمدارس الدينية.

كانت معظم الكتب التي تنسخ في ذلك الوقت وتحفظ في المكتبات ذات طابع ديني، وكانت نسخ القرآن تحتل مكانة خاصة بخطها الجميل وتجليدها النفيس. وإلى جانب ذلك كانت هناك كتب من الفلك والتاريخ والطب والرياضيات والحقوق وبقية العلوم، بالإضافة إلى الكتب الأدبية.

وفي مكتبات العلماء نجد أولا تلك الكتب التي كانوا يعودون إليها كل يوم والتي يعتمدون عليها لإنجاز مؤلفاتهم. وقد أوصى الكثير من أصحاب هذه المكتبات الخاصة بمكتباتهم إلى المكتبات العامة، مما يشهد برغبة هؤلاء لكي يستفيد الآخرون من هذه الكتب. ولدينا هنا استثناء واحد يتعلق بالكاتب المعروف أبي حيان التوحيدي (القرن العاشر الميلادي) الذي حرص على إحراق مكتبته عوضا عن أن يتركها لمواطنيه نظرا لأنه كان يعتبرهم غير قادرين على تفهم ما يكتبه.

وقد جمعت المكتبات الكبرى في بغداد المثقفين حيث كانوا يتناقشون في العلوم ويسمعون النصوص الأدبية، كما في مكتبة الإسكندرية والمكتبات القديمة الأخرى. وفي بغداد أيضا كان يعين لإدارة هذه المكتبات أناس مثقفون يتمتعون بمكانة اجتماعية كبيرة.

ومن بين هواة جمع الكتب الكبار في بغداد يحتل الخليفة هارون الرشيد (766-809 م) مكانة خاصة، إذ أنه كان قد جمع في بلاطه مترجمين ليترجموا له مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء، أما ابنه المأمون الذي حكم خلال (813-833م)، فقد أسس الأكاديمية المعروفة «بيت الحكمة» التي ضمت

مرصدا فلكيا ومكتبة ضخمة. وفي هذا المكان اجتمع أشهر العلماء المترجمين والخطاطين في ذلك الوقت سواء من العرب أو من الهنود والفرس إلخ. وقد كان المأمون نفسه يشجع العلماء على دراسة الفلسفة اليونانية وعلى

الخطاط حسايو زارين قلم والرسام ماندهار في مخطوطة تعود الى سنة 1581 في بلاط الحاكم المسلم اكبر في الهند (الملكية الاسيوية-لندن)

ترجمة الكتب من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية والفارسية إلى اللغة العربية.

وقد كان المأمون يرسل مبعوثيه الذين يثق بهم إلى بلدان الشرق الأوسط لكي يبحثوا عن المخطوطات اليونانية القديمة، بل حتى أنه أرسل وفدا إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الخامس لكي يطلب منه بعض المخطوطات اليونانية. وقد أثمرت هذه المهمة في القسطنطينية نتائجها الطيبة حينئذ إذ عاد الوفد بكتب كثيرة تشمل مختلف العلوم، مما دفع المأمون أن يطلب ترجمتها فورا إلى العربية. وحسب بعض المصادر، التي يمكن أن ننظر إليها ببعض التحفظ، فإن مكتبة المأمون بلغت من الضخامة أيام حكمه إلى حد أنها جمعت مليون مخطوطة.

وقد تابع الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون دعم «بيت الحكمة» حتى أن مكتبتها أصبحت تجمع كنزا هائلا، إلا أن المنغوليين أحرقوها للأسف حين فتحوا بغداد سنة 1258 م.

وإلى جانب «بيت الحكمة» كانت هناك مكتبات أخرى في بغداد، ومن أهمها تلك المكتبة التي أسسها في نهاية القرن العاشر الميلادي الوزير صبر ابن أرادشير، التي كانت أيضا في إطار أكاديمية أخرى. وقد تمتعت هذه المكتبة بشهرة خاصة لدى المعاصرين نظرا لغناها بالكتب حتى أن الكاتب ياقوت الحموي يقول في القرن الثالث عشر الميلادي إنه «لا يوجد في كل العالم كتب أجمل مما في هذه المكتبة».

وقد كانت مكتبات المدارس أيضا غنية بالكتب، وخاصة تلك التي أقامها الخليفة المستنصر خلال 1232-1233 م في بناء رائع. وقد كان طلبة العلم الذين يرغبون بتكوين مكتبات خاصة بهم يحصلون بالمجان على الورق والأقلام لنسخ ما يريدون من الكتب.

وبالإضافة إلى المكتبات العامة كانت هناك في بغداد الكثير من المكتبات الخاصة التي كان بعضها يحتوي على كتب ذات قيمة كبيرة. ومن بين هذه نذكر مكتبة المؤرخ الواحدي (توفي 822 م)، التي كانت مكتبته الخاصة والتي كانت تحوي على 600 صندوق.

ولم تكن بغداد بطبيعة الحال تحتكر وجود المكتبات في العالم الإسلامي إذ أنه وجدت في المدن الأخرى كسمرقند والبصرة وحلب والموصل ودمشق إلخ.. مكتبات كبيرة وكثيرة. وقد خلف لنا الكتاب العرب معطيات كثيرة عن هذه المكتبات، ومن بين هؤلاء الطبيب والفيلسوف المعروف ابن سينا (9801037م) الذي وصف لنا في سيرته مكتبة الأسرة السمندية في بخارى. وهكذا فهو يروي لنا أنه خلال إقامته في المدينة مرض سلطان المنطقة نوح بن منصور ولذلك استدعوه لمعالجته.

وكما يضيف ابن سينا: «في أحد الأيام رجوته أن يسمح لي بالدخول إلى مكتبته لأرى الفهرس وأقرأ كتب الطب. وحين سمح لي بذلك دخلت إلى بناء مقسم إلى عدة أقسام وفي كل قسم كانت هناك صناديق الكتب الواحد فوق الآخر.

في أحد الأقسام كانت هناك الكتب الخاصة باللغة والشعر، وفي قسم آخر كانت هناك الكتب المتعلقة بالحقوق إلخ. وهكذا ففي كل قسم كانت هناك الكتب التي تتعلق بأحد العلوم، شاهدت هناك فهرس المؤلفات اليونانية القديمة وطلبت ما كنت أريده. وهناك شاهدت كتبا قد لا يعرف أحد عنها

شيئا ورأيت كتبا لم أرها في أي مكان آخر لا سابقا ولا لاحقا. قرأت هناك تلك الكتب وأخذت بعض الملاحظات. وهكذا عرفت المكانة التي شغلها كل واحد في علمه»(*)

وعلى الرغم من هذا فإن المكتبات التي أسست في مصر كانت تفوق بضخامتها وأهميتها كل المكتبات الأخرى في العالم الإسلامي. ففي القاهرة مارست الأسرة الفاطمية (969-1171 م) ذلك الدور الإيجابي في التطور الثقافي على نمط ما قامت به الأسرة العباسية في بغداد. فقبل تولي الأسرة الفاطمية للحكم في مصر لم يكن العرب يعبرون عن اهتمام بالكتابة والكتب والمكتبات، وقد شكلت في السنوات المتأخرة تلك الأسطورة التي تقول بأن العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية الشهيرة حين فتحوا هذه المدينة سنة 642 م. وحسب هذه الأسطورة فإن حمامات المدينة بقيت أربعة شهور تحرق كتب المكتبة لتسخين المياه في مراجلها. أما اليوم فيشك بحق في أن يكون العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية.

في العصر الفاطمي أصبحت العاصمة الجديدة لمصر (القاهرة)من أكبر المراكز الثقافية للعالم في ذلك الوقت. وقد أسس حينئذ الخليفة العزيز بالله (975- 996 م) مكتبته الشهيرة في قصره، تلك التي ضمت حسب بعض المصادر 200 ألف مخطوط وحسب بعض المصادر الأخرى 600 ألف مخطوط. وربما يكون في هذه المصادر بعض المبالغة، إلا أنه لا يشك أبدا في أن هذه المكتبة كانت ضخمة بالفعل إذ أنها كانت تتوزع على أربعين قسما مما كان يدفع شهود العيان للتحدث عنها باندهاش وهكذا نعرف الآن أنه كان يوجد في هذه المكتبة 240 نسخة من القرآن مزينة ومجلدة بشكل نفيس، بالإضافة إلى 1800 مخطوطة حول العلوم القديمة. وقد نقل قسم من هذه المكتبة إلى الأكاديمية الجديدة «دار الحكمة» التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة 1005 م على نمط «بيت الحكمة» في بغداد.

(*) أورد صاحب شذرات الذهب إضافة لها مغزى ومعنى: «واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد أبو علي بما حصله من علومها، وكان يقال: إن أبا علي توصل إلى إحراقها ليتفرد بمعرفة ما حصل منها وينسبه إلى نفسه». انظر:

ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الارناؤوط ج 5، بيروت 1989، ص134

(المترجم).

وقد تحولت «دار الحكمة» القاهرية أيضا إلى مكان يلتقي فيه العلماء، وفي مكتبتها كان يمكن للعلماء والمترجمين والمهتمين أن يجدوا ما يحتاجون إليه من الكتب في كل فرع من فروع العلم. وكان يمكن لأي شخص أن يدخل إلى مكتبة «دار الحكمة»، بينما كانت تقدم للقراء بالمجان الأوراق والأقلام والمحابر. وقد كان هناك خطاطون يختصون بنسخ الكتب والإكثار منها، إلا أن العدد الأكبر من كتب المكتبة كان يأتيها مع القوافل من المدن الأخرى.

وقد سجلت نهاية العصر الفاطمي بداية انهيار المكتبات الكبرى في القاهرة. فقد أدى النهب والحرائق واللامبالاة إلى القضاء على قسم كبير من ثروة المكتبات، التي كان الخلفاء الفاطميون وهم من محبي الكتب قد أنفقوا عليها الكثير من اهتمامهم وثروتهم.

ولكن هذا لا يعني بطبيعة الحال نهاية الاهتمام بالكتاب ونهاية الحياة بالنسبة للمكتبات في مصر. فمع أن الحكام في العصر المملوكي (1250-1517 م) لم يستطيعوا أن يعيدوا لمصر أهميتها الثقافية التي كانت لها في العصر الفاطمي إلا أن بعضهم حاول أن يرعى العلوم والفنون وأن يشجع على نسخ المؤلفات وأن يساعد على تأسيس وتطوير المكتبات. وبالإضافة إلى هذا فقد أسست في ذلك الوقت مكتبات خاصة بالعلماء من أطباء وحقوقيين ولغويين الخ.. مما يدل على تطور في إنتاج الكتاب في ذلك الحين. وهنا تذكر لنا المصادر على سبيل المثال أن الإمام ابن جابر (توفي 1325 م) كانت له مكتبته الخاصة التي تحتوي على 6000 مخطوط.

وإلى جانب هذه المكتبات الكبرى في بغداد والقاهرة كانت هناك مكتبة الأسرة الأموية في قرطبة بالأندلس، التي أسسها الخليفة الحكم الثاني (961-967 م)، الذي يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتنورين العرب. ونظرا لرغبته في أن يجمع بأسرع وقت الكتب القيمة لمكتبته فقد أرسل المبعوثين إلى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التي تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع بسرعة حوالي 400 ألف مجلد لمكتبته. وفي هذه المكتبة كان هناك «جيش» من الخطاطين والمزخرفين والمجلدين الذين كانوا يعملون لحاجات المكتبة، بينما تمكن العاملون في المكتبة بوضع فهرس لها في 44 مجلدا.

ولسوء الحظ فإن هذه المكتبة لم تعمر طويلا إذ أن البرابرة نهبوها سنة

1013 م وانتهت من الوجود حين سقطت الأسرة الأموية. وبالطبع فقد كان في قرطبة مكتبات أخرى، إذ أن هذه المدينة كانت المركز الرئيسي للكتاب

صفحة من القرآن الكريم بخط الخطاط المشهور ابن البواب من القرن العاشر الميلادي (مكتبة شيستربتي-دبلين).

في البلاد. فقد كان في المدينة عدد كبير من الخطاطين الذين كانوا ينسخون الكتب في محلاتهم ثم يبيعونها في قرطبة أو في مدن أخرى. وفي ذلك الوقت كان هناك الكثير من محبي الكتاب من العلماء والشعراء وغيرهم، الذين يرغبون في تكوين مكتبات خاصة بهم. وإلى جانب هؤلاء كان أولئك الذين لا يعرفون الكثير عن الكتب ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يجمعوا في بيوتهم مجموعات نفيسة من المخطوطات ولدينا من ذلك الوقت نادرة تصور بأفضل شكل تقليد الآخرين في الاهتمام بالكتاب: «أقمت بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، وهو بخط فصيح وتجليد مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي. قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له.

أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي لست بفقيه ولا أدرى ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب، وحافظت عليها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. فقلت لنفسي: لك حكمتك يا رب، تعطي البندق لمن لا نواجذ له»[*1] إلا أن المكتبات لم تكن موجودة فقط في قرطبة بل كانت هناك مكتبات غنية في بقية المدن الكبيرة في الأندلس كما في مالاغه وأشبيلية وغرناطة. وبالإضافة إلى المكتبات العامة في هذه المدن كانت هناك مكتبات خاصة للعلماء والأدباء، منها ما هي إسلامية ومنها ما هي عبرية أو يونانية (بيزنطية) إلخ، وذلك بحكم السياسة المتسامحة لحكام البلاد.

وعلى الرغم من هذا فقد بقيت قرطبة لوقت طويل مركز الحياة الثقافية، وهي التي كانت إلى جانب القسطنطينية أكبر مدينة في أوربا. وقد كان لنشاط الخطاطين في ذلك الوقت، وخاصة خلال القرنين 10-11 م، أهمية عظيمة. فحسب بعض التقديرات كان ينجز في كل سنة نسخ 60-80 ألف

(*1) النص الأصلي ورد لدى المقريزي في كتابه «نفح الطيب» على لسان أندلسي-م.
المترجم.

كتاب في قرطبة، ومن المثير أن نشير هنا إلى أن النسوة كن يشاركن أيضا في هذا النشاط ففي أحد مراكز النسخ كانت تعمل 170 امرأة في نسخ القرآن.

وفي الواقع لقد كان لهذا النشاط الكبير، وخاصة النشاط المتعلق بالترجمة في ذلك الحين، أهمية كبيرة بالنسبة للثقافة الأوربية فقد ترجمت الكثير من كتب العلوم والفلسفة اليونانية إلى العربية، وسيتعرف الأوربيون لاحقا إلى هذه الكتب عبر الترجمات العربية بالذات. وقد كانت طليطلة هي المركز لنشاط الترجمة، بعد أن استردها المسيحيون وأسس فيها برعاية الفونسو الحكيم (1252-1284 م) مدرسة المترجمين المعروفة.

فقد ترجمت هنا من العربية إلى اللاتينية مؤلفات الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وبفضل هذه الترجمات تعرفت أوربا على إنجازات العرب في العلم والفلسفة وعلى مؤلفات الكتاب القدماء.

هـ- المؤلفات المرجعية

في عصر الازدهار العظيم لإنتاج الكتاب في العالم الإسلامي، أي في الوقت الذي بدأت فيه تعددية المراكز الثقافية الإسلامية تطرح مشكلات جدية حول نشر المعلومات المتعلقة بالإنجازات العلمية والمؤلفات الأدبية بعد أن أصبحت المعلومات التي تسمع في بلاط الخليفة أو في المدارس غير كافية، ولدت الحاجة إلى إنجاز مؤلفات مرجعية. وهكذا كان لا بد من تسجيل وترتيب عناوين عدد كبير من الكتب، سواء تلك التي ألفها العرب أو التي ترجمها العرب عن اللغات الأخرى كاليونانية والسريانية والهندية وكان لا بد أيضا من توفير المعطيات حول مؤلفي الكتب ومحتوياتها.

وقد كان فضل الريادة في هذا العمل العظيم لابن النديم، الذي ولد في بغداد وعاش في القسطنطينية.

ففي سنة 987 م ألف كتابه المعروف «الفهرست» الذي سجل فيه كل المؤلفات العربية بالإضافة إلى مؤلفات الأمم الأخرى التي ترجمت إلى العربية. وفي مقدمة كتابه يطرح ابن النديم بوضوح كبير الهدف من عمله: «هذا فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها،

وأنسابهم، وتاريخ موالدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع وإلى عصرنا»[*2]

ومن المثير أن ابن النديم يزودنا أيضا بالمعطيات عن هواة جمع الكتب في ذلك الوقت وعن مكتباتهم، وحتى عن المزايدات التي كانت تقام حول الكتب.

وقد ألفت فيما بعد مؤلفات مشابهة خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن ليست لها تلك القيمة التي يمتاز بها «فهرست» ابن النديم. ومن بين هذه المؤلفات لا بد أن نذكر «فهرست» الطوسي[*3] (955-1067 م)، حيث تذكر فيه 900 مؤلف من كل مجالات العلم والدين والأدب إلخ. وقد ظهرت مؤلفات ببليوغرافية من هذا النوع في الأندلس الإسلامية، ولا بد أن نخص بالذكر «فهرست» ابن خير الأشبيلي (1110- 1179 م). ففي هذا الكتاب يذكر 1400 مؤلف في اللغة العربية في مجال الأدبيات الدينية والمعاجم والشعرالخ.

وفي الواقع أن أهمية هذه المؤلفات الببليوغرافية كانت كبيرة جدا في الوقت الذي وصل فيه إنتاج الكتاب في العالم الإسلامي إلى مستوى رفيع جدا، وفي الوقت الذي لم تعد فيه الثقافة الإسلامية تقتصر على مركز واحد مما كان يجعل من الصعب معرفة ماذا يؤلف من كتب في أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة.

و- الإسلام والطباعة

في الوقت الذي كانت فيه الكتب تطبع في أرجاء واسعة من آسيا، في اليابان وكوريا والصين وبلاد الأويغور الأتراك، بواسطة القوالب الخشبية ثم بواسطة الحروف المتحركة، نجد أن إنتاج الكتاب بقي يعتمد في بقية آسيا وأوربا على النسخ بخط اليد. وكما هو معروف فإن الاكتشافات الكبيرة في حقل الطباعة، سواء بواسطة القوالب الخشبية ثم بواسطة الحروف

(*2) عدنا إلى النص العربي كما ورد على لسان ابن النديم. انظر: كتاب الفهرست للنديم، تحقيق رضا-تجدد، طهران 1971/ص 3.

(المترجم).

(*3) من الواضح أن المؤلف يقصد هنا «فهرست كتب الشيعة» لأبي جعفر الطوسي انظر «الإعلام» للزركلي، ج 6 ص 84- 85.

(المترجم)

المتحركة، لم تصل إلى أوربا مع أن هذه الإمكانية لا يمكن استبعادها تماما، لأن التأثيرات الثقافية والسلع التجارية كانت تسير باتجاهين عبر «طريق الحرير» المعروف بحركته الدائمة.

وربما كان السبب في عدم وصول هذه الاكتشافات إلى أوربا في العصر الوسيط يكمن في عدم اهتمام العرب بهذه الاكتشافات، مما أدى الأمر إلى تأخر انتقال هذه الاكتشافات إلى الغرب. وقد حاول الباحث الاختصاصي بشؤون الطباعة في الشرق الأقصى ث. ف كارتر في كتابه «اختراع الطباعة في الصين وانتشارها باتجاه الغرب» أن يبرر هذا الموقف للعرب بقوله إنهم قد رفضوا لأسباب دينية أن يطبعوا كتبهم المقدسة بوسائل ميكانيكية مما أخر انتشار الطباعة من الشرق الأقصى إلى أوربا.

وفي الواقع أن العرب المسلمين قد رفضوا طباعة القرآن حتى في العصور المتأخرة ويبدو من المثير هنا أن نسجل ما حصل في استنبول للمدعو إبراهيم الهنغاري الذي طلب سنة 1727 أذنا لتأسيس مطبعة في المدينة. وقد حصل أولا على فتوى صريحة من العلماء ترفض بشدة طباعة القرآن على أساس أن هذا يتعارض مع الإسلام ثم حصل أخيرا على موافقة بتأسيس مطبعة بشرط ألا يطبع فيها القرآن. وإذا استثنينا بعض الحالات نرى أن العرب لم يكونوا ليسمحوا بتأسيس المطابع في بلادهم.

وهكذا فقد تأخر عمل أول مطبعة في مصر إلى سنة 1825. وعلى كل حال فإن القرآن قد بدأ في طباعته منذ القرن الخامس عشر الميلادي ولكن خارج المنطقة العربية. فقد طبع للمرة الأولى في فيينا خلال سنوات 1483- 1499 م بينما طبعت عدة كتب عربية أخرى في مدينة فانون بإيطاليا الوسطى خلال 1514 م. ومع أنه لا يوجد شك بأن موقف المسلمين لم يكن مشجعا لانتشار مهنة الطباعة من الشرق باتجاه الغرب، إلا أن ظهور الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر خلال العصر الوسيط يستحق اهتماما خاصا لأنه يعبر عن حالة غير مألوفة في العالم الإسلامي.

ز- الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر

في نهاية القرن التاسع عشر اكتشفت في آثار مدينة قديمة بالقرب من الفيوم نصوص لحوالي خمسين كتابا تم إنتاجها بواسطة الطباعة بالقوالب

الخشبية خلال سنوات 900-1350 م. وكانت هذه الكتب دون استثناء مكتوبة باللغة العربية وتناولت موضوعات دينية، وهي اليوم محفوظة في المكتبة الوطنية في فيينا-حيث توجد غالبيتها وفي بقية المكتبات الأوربية. وليس من السهل هنا تفسير ظهور هذه الكتب المطبوعة في إطار حضارة كانت ترفض طبع الكتب الدينية بوسائل ميكانيكية. ويعتقد هنا أن إنتاج هذه الكتب كان من قبل الشعب، الذي كان يعتقد بالقوة الخارقة للكلمة المطبوعة، والذي لم يكن يملك القدرة على شراء المخطوطات بأسعارها العالية في أسواق الوراقين.

وهكذا يمكن أن يقال إن الأمر في مصر، كما في أوربا لاحقا، يتعلق بالإنتاج الثقافي الدوني للشرائح الفقيرة. ومن الصعب الاعتقاد بأن إنتاج الكتب على هذا النحو كان بمساعدة أو مباركة رجال الدين، وهم الذين كانوا يتميزون بموقف صارم من طبع الكتب المقدسة. وهناك من يعتقد أن أمثال هذه الكتب قد طبعت في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وليس فقط في مصر، ولكن مناخ مصر الجاف هو الذي ساعد على حفظ النصوص التي وجدت.

إن الباحثين الاختصاصيين الذين اهتموا بهذه المطبوعات النادرة في العالم الإسلامي قدموا براهين مقنعة بما فيه الكفاية لتكوين رأي يقول بأن هذه الكتب المطبوعة قد ظهرت بتأثير مباشر أو غير مباشر للتقنية الصينية في الطباعة بالقوالب الخشبية، ولذلك فهي تعتبر جسرا مهما بين الطباعة التي ظهرت أولا في الشرق الأقصى وبين الطباعة التي ظهرت لاحقا في أوربا في نهاية العصر الوسيط. وفي الواقع أن القارئ يجد نفسه مقتنعا بما يذهب إليه هؤلاء الاختصاصيون، مع أنهم لا يستطيعون أن يدعموا آراءهم ببراهين قوية، من أن الأوربيين قد تعلموا هذه التقنية من المسلمين نتيجة للصلات التي كانت قائمة بينهم. وعلى الرغم أنه من الصعب إثبات الصلة بين الطباعة المصرية والطباعة الأوربية إلا أنه تبقى لدينا حقيقة لا شك فيها، ألا وهي أن الكتب المطبوعة الأولى بالقوالب الخشبية قد ظهرت في أوربا في الوقت الذي توقف فيه إنتاجها في مصر.

المراجع

فيما يتعلق بالكتاب والمكتبات في العالم الإسلامي انظر:

K.Holter, Der Islam, Handbuch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufl, Wiesbanden 1955, Bd. III, p188-242;

ومن بين الدراسات الكثيرة حول المكتبات العربية لابد أن نذكر:

O.Pinto, Le Biblioteche degli Arabi nell‘ eta degli Abbassidi, Bibliofilia, 30 (1929), p139-165;

A.Grohmann, Bibliotheken und Bibliophilen im islamischen Orient, Festschrift der Nationalbibliothek in Wien, Wien 1926, p431-442;

R.S.Mackensen, Four Great Libraries of Medieval Baghdad, The Library Quarterly, 2 (1932), No. 3, p229-279;

S.K.Padover, Muslim Libraries, The Medieval Library, New York 1957, p347,368;

وحول الخط الإسلامي لدينا صورة جميلة لدى:

A.Katibi-M. Sijelmassi, The Splendor of Islamic Calligraphy, New York1975.

وحول البيليوغرافيا الإسلامية بشكل خاص انظر:

Syed Jalaluddin Haider, Bibliographic heritage of Muslims, Libri, 29 (1979), No. 3, p. 207- 218.